علم الفولكلور
(التراث الشعبي)

أهميته ودوره في بث الوعي القومي و الوطني

ان من يقلب في صفحات تاريخ الشعب السرياني (الكلدو أشوري) منذ سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م ثم سقوط بابل سنة ٥٣٩ق.م لأطلع على ما أصاب هذا الشعب من هزات عنيفة ومحن قاسية كانت سببا في اقتلاعه من جذوره و قذفه بعيدا في كل اتجاه من أصقاع الأرض وبشكل متواتر، منذ ذلك الحين وحتى يومنا هذا.

وأقسى تلك الهزات القاتلة كانت تلك الهجرات المتواصلة التي بدأت منذ ما يقارب القرن، والتي قلعت كما كبيرا من هذا الشعب وغرسته في ارض غريبة غير أرضه بعيدا عن الشرق، بل وبعيدا عن العالم القديم كله. وشتان ما بين الهزات الاولى رغم عنفها وقسوتها، ورغم ما تخللها من قتل و تشريد و سلب و نهب و اضطهاد و قسر لحد الانسلاخ عن متعلقات الشخصية القومية، وعن المقومات التي كانت تؤسس وتكون منه شعبا له وجوده المتميز و كيانه المعنوي، وتحفظ له نسيجه الاجتماعي المستند على مجموعة من مفردات موروثه الشعبي على مر العصور تلك المفردات التي تخص دورة حياة الإنسان منذ الولادة ثم الموت وحتى الولادة الجديدة.

أقول : شتان ما بين تلك الهزات القديمة والهزة الأخيرة والتي حلت بشعبنا كالوباء المميت، هذه الهزة التي راحت تقتلعنا من جذورنا وترمي بأبناء امتنا الكلدو أشورية إلى ارض غريبة منقطعين عن كل ما يربطهم بشرقيتهم، والتي ستعمل على قطع كل صلة لهم بمتعلقات بيئتهم الطبيعية والاجتماعية و الروحية. تلك المتعلقات التي تتغذى وتنمو عليها الخصائص والسمات المتميزة لأية شريحة بشرية.

كانت الهزات الأولى تقذف بالكلدواشوري هنا وهناك، ولكن ضمن منطقته و بيئته المشرقية، و التي لم يكن – بشكل عام – غريبا كل الغربة عنها. ولكن رغم كل ما عاناه الشعب الكلدو أشوري عبر تاريخه العريق الطويل من هزات عنيفة ومحن قاسية، إلا أن موجات تلك الهزات قد ارتطمت بصخرة مقدرة و قوة

هذا الشعب العجيبة على الصمود والإبقاء على خصائصه وسماته الاجتماعية التي ورثها عن أبائه وأجداده، وعلى مقومات هويته، ومواصفات شخصيته القومية المتميزة. إن الإحساس الحميم و العفوي وبخاصة لدى الفرد الكلدواشوري البسيط، يختلف عن حس أي فرد ينتمي الى شعب اخرعاش الاستقرار في وطنه و لم ينكب بحرمانه من أرضه، ولم يعان ما عاناه الكلدواشوري من ضروب الاضطهادات و التشريد والإبادة الجماعية، لقد عملت كل تلك الممارسات اللانسانية التي مورست بحقه على أن تزرع في دخيلة نفسه شعورا مريرا بالغربة و هو قائم فوق أرضه كما لو كان دخيلا على بني وطنه رغم أصالة مواطنته، ورغم رسوخ جذوره التاريخية في عمق تربته. ومع هذا كله فقد صمد ابن الشعب الكلدواشوري ولم ينسلخ عن إخوته وظل داخل جلده وأهابه القومي، متمسكا بيديه و بأسنانه، وبشكل نقي وعفوي وإنساني شفاف بكل ما يصله بأمته و بكل ما يربطه بتراث أبائه وأجداده .

الولادة – التكاثر الموت. انها كل ما يمارس من طقوس ومراسيم وشعائر وعادات وتقاليد وأعراف لكل مرحلة من مراحل دورة الحياة و هي كل ما فيها من ترانيم و أهازيج ومراثي.... الخ. وهي كل الحرف وما يدخل فيها من عدد وأدوات،

وبمختصر العبارة فهو الحياة بطولها وعرضها. ولن نغالي أو نبالغ إن قلنا إننا من أغنى الشعوب بكل هذه الموروثات الشعبية مادية عينية كانت أم شفاهية، وذلك لعراقة امتنا وتاريخنا الثر المشرف.

التراث الشعبي بخصائصه الموروثة والممارسة شكّل و يشكل هوية لأي شعب أو تجمع إنساني يحمل خصائص و مميزات معينة.. انه الجذور الضاربة في الأعماق الحضارية للإنسان.. هو العلمية أو الاسم – ودونه كل التسميات – به تتسمى و تتميز كل الموجودات في هذه الحياة.

والشعب،أي شعب بلا تراث كفاقد هويته، وككائن بلا اسم، وكالنبتة المقطوعة من الجذور والمرمية على شواطئ الشعوب الأخرى تذبل و تذوب فيها عاجلا أم آجلا. التراث الشعبي بكل مفرداته الفولكلورية يساعدنا على التعرف على شعبنا ومجتمعنا بصورة أوضح و اصدق. ويسهل علينا مهمة إيجاد السبل و الطرق لرقيه و تقدمه، فعلى ضوء الماضي الذي يشكل تجربة الآباء والأجداد الحياتية نستطيع رسم خطوط الحاضر النير المتطور.

فكما إن الإنسان استطاع السيطرة على الطبيعة و على البيئة أرضا و فضاء وتسخير قواها لصالحه و لخدمة الإنسانية بدراستها بدقة و عمق و شمولية وعن قرب والتعرف على أسرارها و خفاياها، كذلك فان التعرف على أية امة أو أي شعب من الشعوب يتطلب دراسة تراثه بكل خصائصه و مميزاته الذاتية للنهوض والارتقاء به إلى مقامات أسمى و درجات أفضل و حياة أكرم.

إن محاولة سبر غور امتدادات جذور مورثاتنا الشعبية تقتضي في أحيان كثيرة أن نعود إلى ما تركه لنا أجدادنا الكلدوأشوريون مدونا ومنقوشا على رقم الطين وعلى الحجر في بابل ونينوى وغيرهما من مدننا العريقة، تلك الوثائق التي تحكي تفاصيل حياتهم اليومية، وتوثق ما كانوا يمارسونه من طقوس ومراسيم وعادات وتقاليد و ما كانوا يقيمونه من

احتفالات ومهرجانات في المناسبات الدينية و الشعبية، وما استخدموه من آلات وعدد وأدوات وأثاث وأزياء وغيرها، وبذلك سنكتشف الكثير من أوجه التلاقي والتماثل والتشابه، وكذلك التواصل بيننا وبينهم، مما سيعزز ارتباطنا بهم وانتماءنا إليهم.

ويمكننا من ان نتدرج في تحديد كل حلقة من حلقات الوصل التاريخية التي يدعي البعض فقدانها بيننا نحن الخلف و بينهم كسلف صالح لنا.

ان بعث التراث الحضاري الأصيل لشعبنا و امتنا و نشره و إحياء و تنمية روح الزهو و الفخر و الاعتزاز به لدى كل فرد فيه، سيولد ثقة متناهية بالنفس لديه و سيشعره بالأرضية الصلبة التي يقف علها. ويقوي الأواصر و الروابط التي تشده إلى كل فرد من أبناء جلدته. ومن ثم يمكنه من التزود بالطاقة اللازمة من ماضيه و تراثه وبخاصة الجوانب المضيئة والإنسانية من هذا التراث لينطلق و يواصل مسيرته في ركب الحضارة الإنسانية.

ودور مادة الفولكلور الشعبي في إثارة وتقوية الشعور القومي كدوره في تقوية و تعزيز الشعور الوطني وفي بعث روح المواطنة الحقة والمخلصة و الوفية في نفوس أبناء الشعب. إن أية مفردة تراثية شعبية شفاهية أو عينية، لدى النطق بها أو ممارستها أو مشاهدتها أو سماعها، تثير في نفس ووجدان الإنسان الفرد مشاعر وأحاسيس تهز المرء من جذوره.

وإذا كانت مفردات التراث الشعبي تشد من أواصر انتماء المرء إلى بني جلدته أو بني قومه، فهي في الوقت ذاته تعزز وتقوي ارتباطه بوطنه و ببني وطنه ليتشكل من كل الشرائح البشرية شعبا واحدا وكيانا واحدا رغم كل الخصوصيات والتميزات، لان الجذور التاريخية للجميع يغذيها نسغ تربة ارض واحدة يقدسها الجميع.

إن رقصة شعبية، أو أغنية تراثية، أو زي تقليدي شعبي أصيل، أو تخاطب بين اثنين أو أكثر بلغة قومية متوارثة أو أية مفردة تراثية أخرى، قد تكون اشد وقعا وأكثر تأثيرا، و أعمق إثارة في النفس من ابلغ خطبة و أعمق دراسة تتناول مقومات وعناصر أية قومية و تفلسف مفاهيمها. وفي الوقت الذي تشمل المفردة الشعبية مساحة واسعة من أبناء الشعب، تقتصر المواعظ والخطب والمحاضرات والبحوث والدراسات في هذا المجال على نخبة معينة ومحددة، قد تتفق فيما بينها وقد تختلف وتقابل ما تتلقاه بمفاهيم أخرى، تقوم بدورها بفلسفتها، وتزداد الأمور تعقيدا.

لاشك إن الاعتماد على التاريخ المدون فقط في فهم الماضي أمر لا يقره المنطق والمنهج العلمي. يقول الكاتب الاجتماعي كلايد كلوكهون في كتابه (الإنسان في المرآة). (إن النظر إلى التاريخ البشري على أساس الشعوب التي تركت تاريخا مكتوبا فقط، هو كمحاولة فهم كتاب كامل من مجرد قراءة الفصل الأخير منه).

ان ما يجمعنا نحن السريان (الكلدواشوريين) ويبقينا شعبا واحدا وأمة واحدة،ويمنحنا هوية مميزة، هو تلك الخصائص التراثية الشعبية المتوارثة والأصيلة، وليس كتب التاريخ المركونة فوق الرفوف فقط.

إن ما يثبت هويتنا ويحافظ على بقاء كياننا كأمة واحدة مرهون بدوام كل تلك المفردات الأصيلة المتوارثة عن الإباء وبقائها حية ممارسة.فامتنا حية طالما بقي

ارثنا اللغوي حيا على الشفاه سيالا من الافواه والأقلام، وظلت عقائدنا ممارسة بتقاليدها وخصوصياتها المشرقية الأصيلة، وطالما حفظت كل مفردات تراثنا، من اجل تصنيفها وتوثيقها ودراستها.

قد تكون مهمة السرياني (الكلدو أشوري) الباحث و الموثق و المحقق لتراث شعبه صعبة وعسيرة بسبب الظروف الخاصة التي عاشتها شريحته البشرية، وبخاصة منذ إن عملت العواصف الأخيرة الظالمة على اقتلاعه من تربته،ونثره فوق ترب لا يعرف نسغ الحياة طريقا إلى جذوره. ومع ذلك ورغم كل ذلك فما يترتب علينا جميعا من مسؤولية ملزمة، هو التوجه الجدي الى ما بقي في ذاكرة شعبنا، وبخاصة المسنين والمسنات منه، والعمل عن طريقهم كمصادر معلومات لتوثيق تراثنا الشعبي العريق والإبقاء على سماته و خصائصه و معالمه مادمنا نؤمن ونعترف بان ميراث الشعوب هو دائما من القوى الفاعلة للحفاظ على وجودها وكيانها وشخصيتها المعنوية.

نحن اليوم أمام مهمتين خطيرتين في هذا الشأن أولا العمل الجاد و الكدود لجمع وتوثيق وحفظ لتراثنا الشعبي. والمهمة الثانية والأخطر هي الوقوف بقوة لصد تأثيرات العوامل التي تستهدف محو هذا التراث الإنساني الأصيل، بل وأحيانا علينا الوقوف بوجه مخططات مضادة على سلخ هذا الموروث عن أصحابه وسرقته ومن ثم تبنيه وادعاء ملكيته. هذا فضلا عن ان الإسراع في عملية توثيق مأثوراتنا الشعبية و جمعها ميدانيا مهمة لاتقبل التأخير أو التأجيل بل المبادرة الفورية،فالتقدم الحضاري الكاسح الذي اغذ السير بخطى حثيثة في كافة مرافق الحياة الإنسانية سوف يقضي على معظم هذه المأثورات الشعبية التي تمثل ما أبدعه الإنسان الشعبي.

ولقد التفتت الأمم إلى هذه الظاهرة فسجلت وجمعت مأثورات شعوبها وحافظت عليها لتكون مرجعا للدراسة ومصدرا هاما من مصادر البحث في عادات وتقاليد هذه الشعوب، ولتكون بهذا نواة للدراسات الاجتماعية والاقتصادية والروحية.لقد كرست الأمم والشعوب الجهود الجبارة والإمكانيات الكبيرة لتحقيق تراثها الشعبي في مجالاته المختلفة، ولقد تناولت بالحفظ والصيانة والدراسة حتى المفردات السلبية من تراثها. ولقد تفرغ لهذه المهمة الخطيرة علماء وباحثون اجتماعيون، وأنشئت لها معاهد دراسة ميدانية. وأقيمت متاحف ومعارض، وفتحت ورشات عمل لحفظ وصيانة المخلفات المادية كالعدد والأدوات وحتى لإعادة تصنيعها، للإبقاء على كل ما له صلة بالموروث الشعبي. فضلا عن مكتبات خاصة حوت صنوف الكتب و المصورات وأشرطة التسجيل والأفلام وغيرها كوثائق فولكلورية. ولا يعني هذا كله التراجعية أو السلفية أو عبادة الماضي و التشبث به أو الهروب إليه، باعتباره وحده الذي يعتمد عليه في قيام كيان أي شعب أو امة. يقول العالم الاجتماعي (ايفنس برجرد) وهو من رجال المدرسة الوظيفية المعتدلين في الانثروبولوجيا : (إنني لا أقول إن الحياة الاجتماعية يمكن أن تفهم على ضوء معلومات عن ماضيها، بل أقول أن تلك المعلومات تمكننا من فهم الحياة الاجتماعية بشكل أعمق من فهمنا لها لو كان ماضيها غير معروف لنا).إن تحليل و دراسة المفردة

الفولكلورية هو إبراز العمل الخلاق للإنسانية الذي تولّد ونما نتيجة تطور الفكر البشري عبر التاريخ، وكذلك لإبراز المصادر التي جاءت منها المأثورات الشعبية التي تمثل في حد ذاتها عمق التفكير المبدع لدى الشعب الذي هو خالق تاريخ الإنسانية. إن العمل الميداني و المسح ألموقعي و الدراسات التحليلية في مجال المأثورات الشعبية، قد قطعت أشواطا بعيدة جدا في بلدان عديدة من العالم مما يبعث عن الارتياح. إلا إن مثل هذه الدراسات في بلداننا لا تزال في الدور الابتدائي، وان الكثير من تراثنا الشعبي لازال مجهولا لحد الآن لم يكشف عن دقائقه بشكل توثيقي علمي. فالدراسات عندنا في هذا المجال معظمها سطحية ولا تتبع نهجا علميا واضحا، وخاصة عدم الدقة وأحيانا عدم الأمانة التاريخية في جمع المواد والمفردات الفولكلورية (نماذج عينية ونصوص شفاهية) فهذه المفردات تجمع بصورة عفوية ساذجة سطحية وناقصة، والسبب هو افتقار من يتطرق إلى موضوعات التراث الشعبي إلى المنهجية العلمية في جمع المواد التراثية وتصنيفها وتوثيقها ودراستها بشكل علمي. فضلا عن افتقار الباحثين التراثيين عندنا إلى دليل يضيء طريق الباحث الشعبي و يسهل مثل هذه الأمور و يساعده في وضع منهجية علمية لعمله. على القائم بالمرحلة الأولى لتوثيق مفردات مورثنا الشعبي أن لا يكتفي بمرحلة الجمع الأولية لتلك المفردات وحفظها أو تدوينها أو تسجيلها، فذلك يعني الاهتمام بالشكل و الصيغة للمادة الفولكلورية الخام فقط، والتي غدت مع تقادم الزمن شبه عديمة الجدوى أو الفائدة في عصرنا، بل على الفولكلوري أن يركز اهتمامه على المعاني والدلائل وعلى ما توحيه أو تعنيه المادة الفولكلورية، وما تتضمنه من مشاعر وأحاسيس ذاتية أو جماعية، ومن مفاهيم الحياة المرتبطة بالحياة التي يعيشها الفرد وتعيشها الجماعة، وما تحمله من مغزى ودرس يعتبر ويولى الاهتمام اللازم. وهذه كلها نتبينها بوضوح كنتيجة للتحليل العلمي والاجتماعي أو النفسي أو الاقتصادي أو الروحي لهذه المادة الفولكلورية، كما نتعرف على ما عاناه السلف وما دفعه من ثمن باهض للاحتفاظ بهذا الموروث وممارسته ثم نقله إلينا بكل أمانة،

وكمثال نأتي على ذكر تجربة تعد رائدة في هذا المجال وهي المحاولة التي قام بها مشكورا الأب الراهب إبراهيم اسحق الرئيس العام السابق للرهبنة الهرمزدية الانطونية. حيث قام بجمع مئات إن لم نقل الألوف من مفردات مورثونا الشعبي في سهل نينوى وحفظها في متحف خاص بدير السيدة حافظة الزر وع في القوش، والمحفوظات هي من المواد العينية التي كانت مستخدمة من قبل الإنسان الفلاح أو العامل أو الحرفي حتى العقود الأخيرة من القرن الماضي، في المنطقة المشار إليها. إلا أن هذه التجربة اقتصرت على المرحلة الأولى لمهمة توثيق الموروث الشعبي، كما ظلت حتى اليوم تفتقر إلى عمليتي الدراسة و التحليل، كما لم يتبع في توزيعها وعرضها في هذا المتحف الصغير الأسلوب العلمي فلقد تراكمت العدد والأدوات المعروضة فوق بعضها. كما ظلت هذه التجربة يتيمة، رغم إن فكرة مماثلة تولدت لدى بعض المهتمين بالتراث الشعبي في بلدة القوش ذاتها إلا إنها أجهضت وهي في مراحلها الأولى. ونحن من هذا المنطلق

ندعو ونحث كل المهتمين للقيام بمثل هذه الخطوة وإقامة مثل هذه المتاحف كمرحلة أولى ضرورية لتوثيق موروثنا الشعبي وبخاصة العيني منه قبل اندثاره وزواله وبخاصة تلك العدد والأدوات والهنات التي توسل بها السلف لتيسير أسباب ديمومة حياته. وليكن الإقدام على مثل هذه المبادرات مقرونا بوضوح المنهجية العلمية في جمع وعرض مادة التراث الشعبي هذه.

ضمن كلمة كتبتها قبل ربع قرن تماما، قلت فيها : (إننا نحن الجيل القائم الوحيدون – وأقولها محذرا – الذين باستطاعتنا القيام بمهمة جمع وتوثيق وتصنيف ثم دراسة موروثنا الشعبي، الشفا هي منه والعياني، تلك المهمة الخطيرة ملقاة على عواتقنا، لذلك فنحن الوحيدون أيضا الذين سيقاضيننا ويحاسبنا أحفادنا من الأجيال القادمة إذا ما تهاونا وتقاعسنا عن هذه المسؤولية المقدسة.

لقد ظلت الأجيال التي سبقت جيلنا القائم تتراوح في محلها بعيدة عن التطور الكبير وعن التيارات المدنية الحديثة نسبيا. وفجأة وبعد الحرب الكونية الثانية أقبلت تيارات الحضارة الجديدة سريعة ومتلاطمة، وحفرت فجوة كبيرة بيننا وبين جيل أبائنا، لقد كانت طفرة حضارية كبيرة تلك التي حملتنا بعيدا عن الحياة الاجتماعية ذات الممارسات و الخصائص والمميزات المعينة الخاصة بالأجيال التي سبقت جيلنا. فرمتنا في خضم الوافد من مفاهيم وأنماط الحياة الاجتماعية. فنحن اليوم شيء وآباؤنا شيء أخر تماما، نكاد لا نمت إليهم اجتماعيا بصلة. ولما كنا نحن أخر الشهود لنمط الحياة الاجتماعية التي عاشها جيل الآباء والأجداد، والمحتفظ بخصائصه التقليدية المتوارثة، فعليه نكون نحن من نتحمل تلك المسؤولية الخطيرة والكبيرة في جمع وتحقيق تراثنا وفولكلورنا، والعمل على إنقاذه قبل أن ينخره سوس النسيان وتجرفه امواج العصر فيغرق في بحر الزمن. فنغدو بلا هوية... بلا جذور...؟؟

الموروث الشعبي كما يؤكد الباحثون المختصون، يدعم بل يحقق الشخصية القومية، وهذا يتضح بجلاء ويتبلور في مزاوجة مفردات الموروث الشعبي وفلسفة التربية للشعب وبخاصة الشرائح الشعبية الصغيرة التي تعاني من وطأة بعض الضغوط الاجتماعية.

وتستند هذه الفلسفة التي تتزاوج مع معطيات مفردات التراث الشعبي الفولكلوري على إن الفرد البشري جزء من الشعب الذي ينتمي وينشد إليه، وترتكز هذه المفاهيم على الروح الجماعية وحب الشعب والثقة به، وكذلك الانشداد إلى تربة الوطن والاعتزاز بها.

والفولكلور يمكن أن توظف مفرداته لغرس المبادئ والقيم الإنسانية في النفوس، ولبث روح التحرر والانفتاح والتخلص من النزعات العصبية والقيم الفردية الأنانية السلبية.

وبدراسة التراث الشعبي الأصيل المستقى من منابع الشعب و مناهله البكر التي لم تطلها يد الحضارة، نكرس روح الانفتاح والتفاؤل والاستشراف على المستقبل في نفوس أجيال ترفض بإباء وانفه الخنوع والضياع والذوبان والاندثار، أجيال ترفض بشدة فعل كل عوامل المكان والزمان التي تطوي وتدفن شخصيتها وهويتها وكل سمات وخصائص كيانها.

مفردات التراث الشعبي الأصيلة المتوارثة، والتي محكتها بودقة الأجيال السابقة واختبرتها واصطفتها ثم أسلمتها أو أورثتها للأبناء والأحفاد، تكرس وتغرس روح الجرأة والمجابهة والمغامرة، وروح التحدي في إطار العمل الجماعي، وتبث الثقة في مواجهة المستقبل، وترفض الروح الاتكالية وتشجب بشدة فكرة التابع والمتبوع بمختلف أشكاله وأساليبه.

أضف إلى كل ذلك أمرا مهما وخطيرا وهو إننا إن نهلنا موروثنا الشعبي من منابعه البكر الأصيلة ونشرنا أو وظفنا مفرداته على ضوء المثل الإنسانية الايجابية التي يزخر بها تراثنا، فإننا بذلك سنعزز الإحساس الصادق به، ونشد ونقوي الارتباط العضوي والعرقي بتربة الأرض الأم وبالوطن في نفوس الأجيال الجديدة التي ولدت ونشأت في ارض الغربة، في بلدان المهجر، فيذكرهم بتربة أبائهم وبالأرض التي لم يروها، فيحسسهم بها ويشدهم إليها، ويعمل على إثارة وإلهاب مخيلاتهم في رسم صور لها مما توحيه إليهم قيم ومفاهيم مفردات ورثها آباؤهم، فينمو في دواخلهم حب نقي وحنين إليها.

عندئذ تبرز على شخصياتهم سمات هويتهم القومية، فيظلون مرتبطين مع الزمن بروابط قوية مع من يعيش على الأرض الأم ارض الأجداد من أهاليهم وعشيرتهم، كما يذكرهم ويشدهم إلى ماضيهم المشرف، ويتطلعون ويسترشدون في حاضرهم إلى شق الطريق لمستقبلهم على هدى الرموز الإنسانية المضيئة والايجابية في تراثهم، ويخلق عندهم شعورا عميقا بوجود جامع مشترك يربطهم ببني جنسهم ويكسبهم مناعة كبيرة ضد الاندثار والذوبان في بحار الأمم الأخرى، فيحسون بكونهم واحدا غير قابل للتجزئة، وليس أجزاء يعملون من اجل توحيدها.

رئيس التحرير